

عمر بن عبد العزيز

٦٢ - ١٠١ هـ

للاستاذ عبد الحميد العبادى

تتمة

لم يكن عمر بن عبد العزيز صاحب حق في الخلافة بمقتضى نظام الخلافة الاموية . ولكن ذبوع فضله وسموه الروحى على سائر بنى أمية لفت اليه نظر أولى الحل والعقد من صلحاء الشام أمثال رجاء بن حيوة الكندى وابن شهاب الزهرى ومكحول الشامى ، فلما مرض سليمان بن عبد الملك بدابق مرضه الذى مات فيه ولم يكن له ولد بالغ يعهد اليه ، لم يزل به رجاء بن حيوة وأصحابه حتى كتب عهده لعمر بن عبد العزيز ، ثم من بعده ليزيد ابن عبد الملك . ثم أمر فأخذت البيعة من بنى أمية لمن سعى في عهده دون أن يعينه لهم ، فلما قبض سليمان وأعلن الأمر الى بنى أمية جددوا البيعة لعمر على كره منهم (٢٠ صفر سنة ٩٩)

شرع عمر في تنفيذ برنامج الإصلاح منذ تم له الأمر ، ولقد كان له من زهده ، ومناصرة العلماء له ، ومواتاة أهل بيته : زوجته فاطمة ، وابنه عبد الملك ، وأخيه سهل ، ومولاه مزاحم ، أقوى عون على ما أراد . بدأ عمر بمنصب الخلافة ممثلاً فيه فجرده من كل مظاهر الآبهة ورده الى بساطته القديمة ؛ ولا أدل على ذلك من كلام ابن عبد الحكم قال : « ولما دفن سليمان وقام عمر بن عبد العزيز قربت اليه المراكب ؛ فقال ما هذه ؟ فقالوا مراكب لم تركب قط يركبها الخليفة أول ما يلى . فتركها وخرج يلبس بغلته ؛ وقال يا مزاحم ضم هذه الى بيت مال المسلمين . ونصبت له سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط كانت تضرب للخلفاء أول ما يولون ، فقال ما هذه ؟ فقالوا سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط يجلس فيها الخليفة أول ما يلى ، قال يا مزاحم ضم هذه الى أموال المسلمين ، ثم ركب بغلته وانصرف الى الفرش والوطاء الذى لم يجلس عليه أحد قط ، يفرش للخلفاء أول ما يولون . فجعل يدفع ذلك برجله حتى يفضى الى الحصر ، ثم قال يا مزاحم ضم هذه لأموال المسلمين .

« وبات عيال سليمان يفرغون الأدهان والطيب من هذه القارورة الى هذه القارورة ، ويلبسون مالم يلبس من الثياب حتى تتكسر .

وكان الخليفة اذا مات فما لبس من الثياب أو مس من الطيب كان لولده ، ومالم يمس من الثياب ومالم يمس من الطيب فهو للخليفة بعده . فلما أصبح عمر قال له أهل سليمان هذا لك وهذا لنا . قال ، وما هذا ، وما هذا ؟ ما هذا الى ولا لسليمان ولا لكم ولكن يا مزاحم ضم هذا الى بيت مال المسلمين . ففعل ، فتأمر الوزراء فيما بينهم فقالوا : أما المراكب والسرادقات والحجر والشوار والوطاء فليس فيه رجاء بعد ان كان منه فيه ما قد علمتم ، وبقيت خصلة وهى الجوارى نعرضن ، فعسى ان يكون ما تريدون فيهن ، فان كان والا فلا طمع لكم عنده . فأتى بالجوارى فعرض عليه كأمثال الدمي ، فلما نظر اليهن جعل يسألهن واحدة واحدة من أنت ؟ ولمن كنت ؟ ومن بعثك ؟ فتخبره الجارية بأصلها ولمن كانت وكيف أخذت فيأمر بردهن الى أهلن وبحملن الى بلادهن حتى فرغ منهن . فلما رأوا ذلك أيسوا منه وعلموا أنه سيحمل الناس على الحق »

ثم عمد الى النظام الأقليمى فأصلحه بأن عزل العمال المتشبعين بروح الحجاج ، عزل يزيد بن المهلب وحبسه فى مال كان الدولة فى ذمته ، ونفى نفرا من بنى عقيل أسرة الحجاج ، وولى عمالاً جدداً لم يحفل فى تخييرهم بعصبياتهم ولا بقدرتهم على جمع الأموال كما كانت الحال من قبل ، ولكن بحسن سيرتهم وطهارة ذمتهم ، فكان من عماله عدى بن أرطاة الفزارى والى البصرة ، وعبد الحميد بن عبد الرحمن القرشى والى الكوفة ، وعبد الرحمن بن نعيم القشبرى أمير خراسان ، وأبو بكر بن حزم أمير المدينة ، والسماح بن مالك الخولانى أمير الأندلس . وقد شد أزر الولاة بقضاة عدول ، فجعل الحسن البصرى على قضاء البصرة ، وعامراً الشعبى على قضاء الكوفة كما جعل أبا الزناد كاتباً لأمير الكوفة . ولم يكتف عمر بذلك فى إصلاح الإدارة الإقليمية بل تقدم الى العمال فى أمر العقوبات ألا يأمرؤا بقطع أو صلب قبل مراجعته هو أولاً .

ثم شئ عمر بالمسائل المالية فرد المظالم ، والمراد بالمظالم الأموال التى استولى عليها بنو أمية بغير حق ، وقد بدأ فى ذلك بنفسه فخرج لبيت المال عن كل مال لم يرض سبب تملكه ، حتى لم يبق له الا عقارى سير ببلاد العرب يغل عليه غلة يسيرة فوق عطائه الذى كان يبلغ مائتى دينار فى العام ، ثم أخذ يتتبع أموال بنى أمية يرد منها ما ليس مشروع الملكية الى مستحقه ، وقد هاج ذلك سخط بنى أمية عليه ، وذهبوا ينعون عليه أخذه أموالهم باسم « المظالم » ؛ فلم تلن لغامزهم قناته ، وأراهم انه لا يحجم عن بلوغ الغاية فى التنكيل بهم اذا اقتضى الأمر ذلك . يروى ابن عبد الحكم « ان رجلاً من

أهل حمص أنه يخاصم روح بن الوليد بن عبد الملك في حوائث بحمص كان أبوه الوليد أقطعه أياها ، فقال له عمر أردد عليهم حوائثهم ؛ قال له روح : هذا معي بسجل الوليد . قال وما يغني عنك سجل الوليد والحوائث حوائثهم ، قد قامت لهم البيعة عليها ؟ خل لهم حوائثهم ! فقام روح والخصى منصرفين ، فتوعد روح الخصى ، فرجع الخصى الى عمر ، فقال هو والله متوعدى يا أمير المؤمنين ! فقال عمر لكعب بن حامد وهو على حرسه : أخرج الى روح يا كعب ، فان سلم اليه حوائثه فذلك ، وأن لم يفعل فأتني برأسه ! فخرج بعض من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح بن الوليد فذكر له الذى أمر به عمر ، فخلع فؤاده . وخرج اليه كعب وقد سل من السيف شبرا ، فقال له : قم فخل له حوائثه ! قال نعم ! نعم ! وخلي له حوائثه »

وسار عمر في إصلاح الشؤون المالية على الأساس الشرعى ، فالأموال ينبغي أن تجي من وجوها وتنفق في مصارفها الشرعية ، فمن أسلم من أهل الذمة سقطت عنه الجزية ، وقد اسقط الجزية فعلا عن كثير من موالى خراسان وأهل مصر ، وقال مماثلته المشهورة « إن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جاييا » ونهى عن أن تصير الأرض الخراجية أرضا عشرية ابتداء من سنة ١٠٠ هـ مع عدم التعرض للحقوق التى اكتسبت من قبل ، وألغى وظيفة مالية وظفها أخو الحاج بن يوسف على اليمن فوق الزكاة ، ونهى العمال عن اقتضاء اكلاف مالية لم يرد بها الشرع ، وقد جمعها في كتابه الى عامله على الكوفة فقال « ولا تحمل خرابا على عامر ، ولا عامرا على خراب ، أنظر الى الخراب فخذ منه ما أطاق وأصلحه حتى يعمر ، ولا يؤخذ من العامر الا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ، ولا تأخذن في الخراج ... أجور الضرايين ، ولا هدية النيروز والمهرجان ، ولا ثمن الصحف ، ولا أجور الفيوج ، ولا أجور الليوت ، ولا دراهم النكاح ، ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض »

وقد وسع عدل عمر أهل الذمة من هذه الناحية كما وسع المسلمين ، فانه لما شكاه الى أهل نجرانية الكوفة تناقص عددهم الى العشر مع بقاء جزيتهم على حالها ، أمر برد جزيتهم الى العشر (البلاذرى ص ٦٧) كذلك رد جزية قبرس الى ما كانت عليه وقت الفتح وألغى ما زاده عليها عبد الملك بن مروان (البلاذرى ١٥٤) ويروى البلاذرى أيضا (ص ٤٢٢) انه « وفد عليه قوم من أهل سمرقند فرفعوا اليه ، أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر ، فكتب عمر الى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضيا ينظر فيما ذكروا ، فان قضى بأخراج المسلمين أخرجوا ، فنصب لهم جميع بن

حاضر الناجى ، فحكم بأخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء . فكره أهل سمرقند الحرب وأقروا المسلمين » وأبلغ من ذلك في الدلالة على تحرى عمر العدل المطلق مارواه البلاذرى (ص ١٢٤) قال « قال ضمرة عن علي بن أبي حملة ، خاصمنا عجم أهل دمشق في كنيسة كان فلان قطعها لبنى نصر بدمشق ، فأخرجنا عمر منها وردها الى النصارى » ويروى البلاذرى أيضا (ص ١٢٥) أن الوليد بن عبد الملك قد أدخل كنيسة يوحنا في مسجد دمشق بغير رضا النصارى « فلما استخلف عمر بن عبد العزيز شكوا النصارى اليه ما فعل الوليد بهم في كنيسهم ، فكتب الى عامله يأمره برد مازاده في المسجد عليهم . فكره أهل دمشق ذلك وقالوا نهدم مسجدا بعد أن أذنا فيه وصلينا ويرد بيعة ؟ وفيهم يومئذ سلمان ابن حبيب انخاري وغيره من الفقهاء ، وأقبلوا على النصارى فسألوهم أن يعطوا جميع كنائس القوطة التى أخذت عنوة وصارت في أيدي المسلمين ، على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها ، فرضوا بذلك وأعجبهم . فكتب به الى عمر فسرره وأمضاه » ذلك موقف عمر بن عبد العزيز من أهل الذمة . أما ما ينسب اليه في بعض كتب الفقه من تحامل عليهم ، وانه كتب الى عماله بعزلهم عن أعمال الدولة وأخذهم بألوان من الاضطهاد والتضييق عليهم (الخراج لابن يوسف ٧٣) فغير مؤلف مع المستيقن من سيرته وعلى فرض صحته ، قد يكون نوعا من العقاب كان يعاقب به ذميو الحدود الاسلامية اذا هوما بمظاهرة العدو على المسلمين . وكما كان عمر حريصا على جباية الاموال العامة من مصادرها الصحيحة . فقد كان كذلك حريصا على أن تنفق في مصارفها الشرعية . فمن حيث الفى . ، قد فرض لذرية المقاتلة وعمالهم عملا بسنة عمر بن الخطاب التى ترك بنو أمية العمل بها ، وكتب الى عامله على الكوفة « وانظر من أراد من الذرية الحج فجل له مائة يحج بها » . وفرض لعشرين ألفا من الموالى كانوا يغزون بخراسان بغير عطاء . وأظهر استعداداه لأن يحمل من بيت المال الى خراسان أموالا اذا كان خراجها لا يفي بعطاء أهلها . ومن حيث أموال الزكاة ، فكانت صدقات كل إقليم تقسم على عهده في فقراء أهلها ، وقد قسم في فقراء البصرة كل انسان ثلاثة دراهم وأعطى الزمنى خمسين خمسين ، وفرض للفقيرات من عوانس النساء ، وأعتق كثيرا من الرقاب . وقد كتب الى أحد عماله « ان اعمل خانات في بلادك ، فمن مر بك من المسلمين فاقروهم يوما وليلة ، وتعدوا دوابهم ، فمن كانت به علة فاقروه يومين وليتين . فان كان منقطعاً به فقروه بما يصل به الى بلده » وأمر عماله بقضاء الديون عن الغارمين فكتب

اليه بعضهم » انا نجد الرجل له المسكن والخدام وله الفرس والاثاث في بيته » فكتب عمر « لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوى اليه رأسه ، وخدام يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، وأثاث في بيته ، فهو غارم فاقضوا عنه » ولما رأى عمر ان ليس للشعراء حق في بيت المال جعل يحجزهم من عطائهم وماله الخاص على قلته ، بالدرهم والدنانير المعدودة ، وقد أدرك الشعراء سبب تخرجه هذا فكانوا يقبلون منه العطاء اليسر أو الرد أحيانا بغير عطاء ، ولم يقصروا مع ذلك في مدحه وقدره .

على ان أهم ميزة تميز عمر بن عبد العزيز من غيره من خلفاء الاسلام ورؤساء الدول طرا فيما نعلم انما هي رغبته الصادقة في نشر لواء السلم ، لا على بلاده وحدها ولكن على العالم بأسره . ولبيان ذلك نقول انه عمد في داخل الدولة الاسلامية الى الأحزاب التي ناوت الأمويين منذ قام ملكهم فترضاها وحملها على ما يريد من أثار السلم والعافية . فالشيعة استجلب مودتهم بان منع سب على بن أبي طالب على المنابر ، وبأن رد على العلويين (فذك) التي رآها حقا قديما لهم قد غصوه . والخوارج قد كبس جماعهم من طريق المجادلة بالحسن والأقناع بالحجة والبرهان . فعندما ظهر شوذب الخارجي بأرض فارس أمر عمر ألا يقاتلوا حتى يسفكوا دما أو يفسدوا في الأرض ، وكتب في الوقت نفسه الى شوذب يطلب اليه المناظرة في دعواه ، فأنفذ اليه الخارجي اثنين من فقهاء الخوارج لينظراه . وقد استطاع عمر أن يهدم كل حجة أورداها الا ما احتج به عليه من أقراره يزيد بن عبد الملك على ولاية العهد مع ما يعلم من قبح سيرته ، وكان من وراء هذه المناظرة الطريفة ان انضم أحد الخارجيين الى عمر ، وأما الآخر فعاد الى أصحابه وأنهى اليهم على ما يظهر من سيرة الخليفة ما حملهم على السكون طوال عهده . وأما الموالى فقد قطع أسباب شكواهم ، بأن أسقط الجزية كإرأينا عنهم ، وبأن فرض لمقاتلتهم عطاء . وأما العصبية القبلية من يمنية ومضرية وربعية فقد هدأ من حدتها ، بأن ردع الشعراء الذين كانوا يذكرون نارها ، وبأن اختار ولاته بالنظر الى كفايتهم دون قبائلهم .

أمامن حيث العلاقات الخارجية ، فقد سلك عمر بن عبد العزيز في الأمر مسلكا بدعالم يسبق اليه ولم يلحق فيه . ذلك أنه أقفل جميع الجيوش الاسلامية التي كانت تغزو وراء الحدود ، أقفل مسلبة ابن عبد الملك وكان مرابطا حول أسوار قسطنطينية وأعانه على القفول بأموال بعث بها اليه . وأقفل الغزاة بما وراء النهر على كره منهم كما أقفل من كانوا يغزون بالسند . على أن عمر لم يقف في هذا الأمر الخطير عند هذا الحد ، بل اتبع العدول عن سياسة العنف بالدعوة السلمية الى

الاسلام . يروى البلاذري انه لما أقفل الجيوش التي كانت تغزو بما وراء النهر كتب الى ملوك تلك الجهة من الترك يدعوهم الى الاسلام فأسلم بعضهم . ولما انتقض ملوك السند كتب اليهم يدعوهم الى الاسلام والطاعة على أن يملكهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، قال البلاذري « وقد كانت بلغتهم سيرته ومنهجه فأسلم جيشبة والملوك وتسموا بأساء العرب » كذلك كانت سياسته بازاء بربر المغرب الذين أشجوا الجيوش العربية زهاء ثمانين عاما . يقول البلاذري « ثم لما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز (رضه) ولى المغرب اسمعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بنى مخزوم ، فسار أحسن سيرة ودعا البربر الى الاسلام ، وكتب اليهم عمر كتب يدعوهم بعد الى ذلك ، فقرأها اسمعيل عليهم في النواحي فغلب الاسلام على المغرب » ويذكر المؤرخ اليوناني تيوفان ان عمر كتب أيضا الى الأمبراطور البيزنطي يدعوهم الى الاسلام

وكان عمر بن عبد العزيز قد اطلع بلحظ الغيب على نظامنا الحديثة التي تفرض على الدولة الاشراف على التعليم والعمل على نشره بين أبنائها . فقد أراد تعليم الناس كما يؤخذ من قوله في رواية ابن عبد الحكم « ان للاسلام حدودا وشرائع وسننا فان أعش أعلكموها وأحلمكم عليها » بل لقد أخذ في ذلك بالفعل فبعث يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث بن محمد الأشعري الى البادية ليقفها الناس وأجرى عليهما رزقا . ثم هو أول خليفة أمر بجمع أحاديث رسول الله وتدوينها . نقل السيوطي « ان عمر بن عبد العزيز كتب الى أبي بكر محمد بن حزم ان انظر ما كان من حديث رسول الله صلعم أوسنته فاكتبه ، فاني خفت دروس العلم وذهاب العلماء . وأخرج أبو نعيم في تاريخه اصبهان عن عمر بن عبد العزيز انه كتب الى الآفاق أن انظروا الى حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه قال في فتح الباري يستفاد من هذا ابتداء تدوين الحديث النبوي »

وبعد ، فماذا كان اثر تلك الجهود كلها ؟ لقد أدت الى الغاية التي كان يرمى اليها عمر . فقد طاف بالامة الاسلامية اذ ذاك طائف الزهد والورع والتدين اقتداء بخليفته ، والناس على دين ملوكهم كما قالوا قديما . يروى الطبري « وكان الوليد صاحب بناء واتخاذ مصانع وضياع ، وكان الناس يلتقون في زمانه ، فأثما يسأل بعضهم بعضا عن البناء والمصانع ، فولى سليمان فكان صاحب نكاح وطعام ، فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن التزويج والجواري ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل ، ما وردك الليلة ؟ وم تحفظ من القرآن ؟ ومتى نلتم ؟ وما تصوم من الشهر ؟

تكلّمت بالحق المبين وإنما تبين آيات الهدى بالتكلم
وصدقت موعود الذي قلت بالذي فعلت فأُمسى راضيا كل مسلم
وروى ابن عبد الحكم قال « قال يحيى بن سعيد : بعثني
عمر بن عبد العزيز على صدقات أفريقية فأقتضيتها وطلبت فقراء
نعطياهم فلم نجد بها فقيرا ، ولم نجد من يأخذها مني ، قد أغنى
عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها رقابا فأعتقتهم وولّاهم
للمسلمين »

نعم ، لقد أغنى عمر الناس جميعا إلا نفسه وأهله . فلم ير ولى قوم أعف عن ما لهم منه ، ولم ير أهل بيت أصبر على الطعام الخشن والثوب المرقوع والبيت المتهدم منه ومن أهل بيته . ولقد أراح عمر الناس ولكنه أتعب نفسه ، فكان حركة دائمة يعمل ليل نهار حتى ذهبت نضرتة واحترق جسمه . وزاده هما فقدانه فى آجال متقاربة من عهده القصير أحبابه وأعداؤه : ابنه عبد الملك ، وأخاه سهلا ، ومولاه مزاحما ، فلم يقو جسمه على احتمال العمل والألم ، فاسلم الروح بخناصرة فى ٢٥ رجب سنة ١٠١ ولما يعد التاسعة والثلاثين من عمره . وقد دفن بدير سمعان قريبا من دمشق .

لأندرى ماذا كان عمر صانعا لو مد له فى حياته ؟ أغلب الظن انه كان يتلافى موضع الضعف من أصلاحه فيقيم هذا الاصلاح على أساس ثابت لا يتزعزع بمجرد موته . ومهما يكن من شيء فقد

فاز عمر بن عبد العزيز بتقدير أنصاره وخصومه على السواء . فهو عند أهل السنة مجدد المائة الأولى وآخر الخلفاء الراشدين ، وقد رضى عنه العلويون وأهدى الى روحه في أواخر القرن الرابع شاعرهم الشريف الرضى أبياتا من الشعر حارة جميلة ، بل ان العباسيين عندما قامت دولتهم احترموا قبره فلم يندشوه كما ندشوا قبور غيره من بنى أمية ، على ان أبلغ من وصفه وأنبه رجل كان يحكم الظروف السياسية خصمه العنيد بل عدوه اللدود ، ذلك ملك الروم أليون الثالث . أخرج ابن الجوزى عن محمد بن معبد قال « أرسل عمر بن عبد العزيز بأسارى من أسارى الروم ففادى بهم أسارى المسلمين . قال فدخلت على ملك الروم يوما فاذا هو جالس على الأرض مكتئبا حزينا . فقلت ما شأن الملك ؟ فقال أوماتدرى ما حدث ؟ قلت ما حدث ؟ قال مات الرجل الصالح ! قلت من ؟ قال عمر بن عبد العزيز ، ثم قال ملك الروم : لأحسب انه لو كان أحد يحى الموق بعد عيسى بن مريم لأحياهم عمر بن عبد العزيز . ثم قال انى لست أعجب من الراهب ان أغلق بابَه ورفض الدنيا وترهب وتعبَّد ، ولكنى أعجب من كانت الدنيا تحت قدميه فرفضها وترهب »

أما نحن فنلاحظ فيه خير نزعاته وأشرف عواطفه: نلاحظ فيه حبه للسلام وسعيه في توفيره في العالم، فهو بحق داعية السلام في القرن الأول الهجري والنامن الميسلادي، وكفى بذلك مفخرة في الدنيا، وقرنة في الآخرة؟

الفها باللغات الأوربية كبار المستشرقين ، ونقلها الى العربية ففيف من خريجي الجامعة المصرية ، واشترك في مراجعة الترجمة والتعليق عليها أعلام الفكر في مصر والشرق العربي

«... انكم بترجمتكم لدائرة المعارف الاسلامية تؤدون أكبر خدمة للإسلام»

عمر طوسون

(من حديث لسموه مع أعضاء لجنة الترجمة)

«... إن لم تكن أعظم عمل علمي قامت به مصر فإنه من أعظم أعمالها»

خلیل مردم

(تنصو المجمع العلمى العربى بدمشق)

يجب أن يقرأها كل شرقي ليعرف ماضيه المجيد وتاريخه الحافل — يظهر العدد الاول في أول أكتوبر سنة ١٩٣٣ بإدراوا الى الاشتراك — عدد النسخ المطبوعة محدود .

الاشتراك في دائرة المعارف الإسلامية داخل القطر المصري عن ستة أعداد : ٤٠ قرشاً صاغاً مصرياً
خارج « . » « » « » : ٧٠ قرشاً صاغاً مصرياً

ثمان العدد الواحد من دائرة المعارف الإسلامية داخل القطر المصري : ٨ قروش

» » » » » » »

خارج » » » » » » »

۱۲: قرشاً » » » » » » »

خابروا مباشرة لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية بمقرها : - ٣٣ شارع قصر النيل القاهرة - مصر